

عيادة Gillette

(كما يراها من عبروها)

«العيادة تعالج المرضى. مجتمع الرعاية يسند الناس.»

أولاً. العيادة

أذكر أمي وهي تروي أنه في الستينيات، حين كانت على وشك أن تلدني، كانت العيادات قليلة والمستشفى للمرضى؛ فاختارت لذلك أفضل مكان متاح لها: بيتها، في سريرها.

ما إن وُلدتُ حتى كانت هناك امرأة، تلك التي يسمّونها القابلة، وقالت لأمي إنني خرجتُ حسن الصنعة — وإنها، إن كانت أمي لا تريدني، ستأخذني معها إلى بيتها.

رمتها أمي بنظرة صاعقة. لكن لعل القابلة لم تكن تعلم أنني لن أكون يوماً لامرأة واحدة، بل لكل النساء اللواتي سألتقيهن؛ وبعد عشرين عاماً ذهبتُ إلى بيتها. أنا رجل يفي بكلمته. ما كان لي أن أخيّب ظنها.

هذه الافتتاحية ليست سخرية أدبية، ولا نكتة. معناها شيء واحد فقط: العيادة، بوصفها مكاناً، شيء جديد. لم تصلنا من المصريين، ولا من الآشوريين أو البابليين. ما هي إلا نتاج نظام صحي جعل من المرض تجارة ومن أدويته علامة تجارية.

لم تسعَ قط إلى أن تحل محل المستشفيات، وهذه باقية مؤسسةً قائمة؛ لكنها أوهمت المريض دائماً بأنه، إن دفع، نال أكثر — نال الأفضل.

بعض الأماكن تؤدي وظيفة. وأخرى تصير إمكاناً.

كان ذلك يوم افتتاح العيادة في مدينتي: الأولى من نوعها القادرة على تقديم قائمة كاملة، تغطي الطب كله، أو الأساسي منه على الأقل — طب الناس العاديين، إن جاز القول.

عُيّن ثلاثة رؤساء أقسام، هم الذين كان عليهم أن يبنوا الهيكل الطبي. وبعد أن أجروا المقابلات لتوظيف الأطباء، أغلقوا على أنفسهم باب غرفة ليتبادلوا الرأي في طريقة الاختيار.

ما يلي لا أنقله على أنه حقيقة، بل حكايةً سوداء — رواها لي جماعة من الأصدقاء الأطباء المتقاعدين لتوّهم من النظام الصحي الإيطالي، وكانوا يروونها لنا نحن أهل المبيعات ليضحكونا، وليُعلمونا أن لهم هم

أيضاً حكاياتهم.

حكاية أعدّها أنا شخصياً من حكايات الأفنية، واحدة من تلك النكات المُرّة التي كان الأطباء أنفسهم يتداولونها عن أطباء آخرين — سلالة غريبة وعجيبة، لم أعد آتمنها حتى على علاج قطّي.

أدوّنها لا حكماً، بل صورةً لمقدار الريبة التي كان الناس العاديون قد راكموها تجاه طب لم يعودوا يشعرون أنه طبهم.

كانت تُروى هكذا. أكبر الثلاثة سناً — وهو رجل عمل أيضاً في ظل النظام القديم — قال إنه سيشرح كيف يُختار الأطباء الجدد، وفق ما سمّاه مبدأ الرقم ثلاثة.

إذا وجدتم طبيباً يفهم كثيراً فأرسلوه إلى الطب العام: هناك، ومع الخبرة، سيجيب بنفسه عن معظم الأسئلة.

وإذا وجدتم المتوسطين، الأكفاء من غير نبوغ، فضعوهم في غرف العمليات: هكذا، حين يفتحون، يرون ما يجدون ويتعلمون إصلاحه.

وأما من يفهمون قليلاً، أو من يأتون بتوصية من الأحزاب وقوائم التعيين، فأعطوهم المهام التي — كما كانت تقول النكتة القاسية — تُترك فيها الطبيعة لتقوم بالعمل كله تقريباً بدلاً منهم.

تلك كانت رواية الأفنية، طبعاً. وهي ككل حكايات الأفنية، تقول عن الأطباء أقل مما تقول عمّن كانوا يروونها: عن قلّة ما بقي لهم من ثقة.

وهكذا وُلدت العيادة. تجربتها الحقيقية صنعها المرضى؛ ولم يتحدث عنها إلا الأحياء — من حالفهم الحظ، لا من مسّتهم النكبة. وحين كان كل شيء يسوء، كانت عيادة الشمال — في أي بلد كان — تمثّل الجانب الأفضل: لأن الشمال اقترن دائماً بالثروة والصناعة، وهناك يوحي الدفع مقابل العلاج بأن العلاج أفضل.

ثم أُغلقت المصحات العقلية الجنائية، ووُلدت العيادات النفسية — وقد حُوّلت لاحقاً نحو الأمراض العصبية. لم يعد العلاج مقصوراً على المجانين المثبَت جنونهم رسمياً، بل شمل أمراضاً أخرى كذلك.

ثانياً. خاتمة

العيادة مبنى. مجتمع الرعاية شيء أكثر من ذلك.

ثالثاً. صفحة المؤلف

لم يُكتب هذا العمل بتكليف من أحد.

لم يُبَع.

لم يُنجَز لغرض تجاري.

كُتب ليشهد لقيمة إعادة التأهيل، وللكرامة الإنسانية، وللعلاقة بين الناس.

الأجر الوحيد المطلوب دولار رمزي — لا ثمناً للعمل، بل شهادة على التزام مشترك بثقافة الرعاية والأمل والمسؤولية.

فرديناندو

Gillette ← PDF، ملحمة المريض

استكشف الملاحم الأخرى

The Corpus · الخرائط · المكتبة · Wood · Opera · Genesis · One Door · Vatican ·

اتصل بنا